الدرس الثالث

شق الصدر: في ذات يوم، وكان محمد ـ ﷺ ـ قد قارب الرابعة من عمره، وبينما كان يلهو مع أخيه من الرضاع ـ ابن حليمة السعدية ـ بعيدًا عن الخيام، جاء ابن حليمة وهو يجري وعلى وجهه سِمات الفزع، وطلب من أمه أن تدرك أخاه القرشي، فسألته عن الأمر، فقال: لقد رأيت رجلين في ثياب بيض، يأخذانه من بيننا، ويضجعانه ثم يشقان صدره، وقبل أن يكمل روايته، كانت حليمة تركض نحو محمد ـ ﷺ ـ فرأته واقفًا مكانه لا يتحرك، وقد علت الصفرة وجهه، وامتقع لونه، فسألته في لهفة عما أصابه، فأخبرها أنه بخير، وحكى لها أنَّ رجلين في ثياب بيض أخذاه فشقا صدره، ثم أخرجا قلبه فاستخلصا منه علقة سوداء طرحاها، ثم غسلا القلب بماء بارد، ثم أعاداه إلى الجوف، ثم مسحا على الصدر، وغادرا المكان ثم اختفيا. عادت حليمة بمحمد إلى الخباء. ومع إطلالة فجر اليوم التالي، كانت حليمة تحمل محمدًا إلى أمه في مكة. وتعجبت آمنة من عودة حليمة في غير أوانها، برغم حرصها على الطفل، وسألتها عن السبب، فحدثتها حليمة عن حادثة شق الصدر.

خرجت آمنة بطفلها اليتيم إلى المدينة لزيارة أخواله من بني النجار، ومكثت هناك أيامًا، وفي طريق العودة إلى مكة، وافاها الأجل في مكان يسمى الأبواء، وهناك دفنت، وهنا ودع محمد ـ ﷺ ـ أمه وهو في السادسة من عمره، وكان على جده عبد المطلب أن يعوضه الكثير، فرعاه وكفله، وعطف عليه. وفي الثامنة من عمره ـ ﷺ ـ توفي جده عبدالمطلب، فكفله عمه أبو طالب رغم كثرة عياله، وقلة ماله، وعامله عمه، وكذلك زوجته كواحد من أبنائهما، ولقد تعلق الطفل اليتيم بعمه إلى حد كبير. وفي هذا الجو بدأ تكونه الأولي، ونشأ على الصدق والأمانة؛ حتى كانتا لقبًا يُعرف به، فإذا قيل حضر الأمين، أو حضر الصادق، عُرف أنه محمد ﷺ.

وبعد أن شبَّ وكبر قليلًا، بدأ في الاعتماد على نفسه في شؤون حياته، وكسب معاشه، فبدأ ـ عليه الصلاة والسلام ـ رحلة العمل والكسب، فعمل راعيًا لبعض القرشيين على أغنامهم مقابل مبلغ يسير من المال. واشترك في رحلة تجارية إلى الشام، كانت أسهمت فيها خديجة بنت خويلد بمال كثير، وخديجة هذه أرملة ثرية، وكان وكيلها على مالها في تلك الرحلة ميسرة غلامها ومدبر أعمالها؛ وببركة رسول الله ـ ﷺ ـ وأمانته، ربحت تجارة خديجة ربحًا لم تعهده من قبل، فسألت غلامها ميسرة عن سبب هذا الربح العظيم، فأنبأها أنَّ محمد بن عبدالله تولى عملية العرض والبيع، ولقد أقبل الناس عليه إقبالًا كبيرًا، فكان الربح الكثير من غير ظلم، أصغت خديجة إلى غلامها ميسرة، وكانت تعرف عن محمد بن عبدالله بعض الأمور؛ فاشتد إعجابها به؛ ورغبت في الزواج منه، فأرسلت إحدى قريباتها تستطلع لها رغبته في ذلك الأمر، وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره الشريف. فأتته المرأة تعرض عليه الزواج من خديجة فرضي بذلك. فتم الزواج، وسعُد كل واحدٍ منهما بالآخر، وأخذ محمد ـ ﷺ ـ في إدارة شؤون ثروة خديجة، وأثبت كفاءته وقدرته. ومضت السنوات، وتتابع حمل خديجة وولادتها، فكان لها من البنات: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، و من البنين القاسم وعبدالله وقد ماتا في صغرهما.